ساعي البريد

قصة بقلم عايدة سليمان

الساعة التي تسبق ساعة الظهيرة كانت ساعتها المفضلة . ساعة الاستلقاء على الاريكة العربية القديمة بلصق الطاقة المطلة على سطحية البيت ومن ثم على الدرب المنسابة من ساحة القرية . في ذلك الوقت تكون قد انتهت من الطبخ ، وتنظيف البيت وتنسيقه ، وتكون على اتم استعداد للجلوس على اريكتها وتسريح نظرها من الطاقة صوب الدرب حيث ظل الاشجار يتقلص ببطء ويحتمي بجذوعها الكبيرة ، وحيث سيمر بعد دقائق ساعي البريد . كان لتلك الساعة نكهتها الخاصة ، كانت موعدها اليومي المفضل . وساعي البريد ، مع كل بيت في القرية له موعد . في الساعة الثامنة يمر في الحي « التحتاني » لا بد ان ياسمين، وام اسعد ، وام عباس ، لا بد ان هؤلاء جميعا على موعد معه في تلك الساعة . وهي موعدها ، كان الساعة الحادية عشرة . ولكن من اليوم وصاعدا لا موعد لك يا ام خطار مع ساعي البريد !!

وتصفق ام خطار كفيها بلوعة وعصبية ، ثم ترفع ابصارها صوب صورة خطار ، ايمكن هذا ، خطار اصحيح انك لن تعود ؟ وتقرب وجهها من الصورة تمرغ خديها عليها ، في حين تخيط انفاسها اشكالا وصورا على صفحة الزجاج . تحس بدبيب حارق في عينيها ، يسيل ثم يخرج على وجهها وعلى يديها على صورة خطار . الان وفي هذا الصباح تحس بمصيبتها ، بفجيعتها كما لم تحسها من قبل . هذا اول يوم تترك فيه لوحدها منذ جاءتها تلك الرسالة من فؤاد ابن اختها :

« يا خالتي ما اصعبها علي ، ولكن خطار اوصاني قبل ان يموت ان اخبرك .. وان اطلب رضاك عليه ودعاءك له ، حتى بعد الموت .. »

ـ « خطار .. خطار .. » تذكر انها صاحت باعلى صوتها ، تذكر انها ولولت ، بل عوت عواء ، الله بل لاتذكر شيئا ، لا تذكر ماذا حدث.. شيء كغمامة اختطفتها ، اختطفت عينيها ، وروحها وجسدها ، سمعت لفظا بعدها ،

ـ انثروا ماء الزهر على وجهها .

ـ يا ام سمير .. افركي يديها ، اضربيها كفا ، لا بد ان تستفيق.

لكم تود لو انها لم تستفق ، لو انها مضت لتوها . « كنت اعيش لك يا خطار ، وحين مضيت كان يجب ان امضي بدوري » .

ـ سبحان الحي الباقي يا ام خطار .

ـ هذه ارادة الله . والفاظ اخرى كثيرة كانت تتراكم على اذنها من افواه الجيرة الذين تراكضوا على صياحها .

« مساكين الله لا يجربكم » تذكر ام خطار الان يوم مضى ابو خطار. كانت صبية حينذاك . لم تكن قد رأت الموت . ولا انسانا رأته مغمض العينين ومسبلا . كانت تلك الحالة بالنسبة لها نوعا من الاستلقاء العادي بعد يوم مرهق يتبعه اختطاف ذهني حيث يعيش الانسان في عالم من الاحلام كانت تحبه منذ طفولتها . وحين رأت زوجها على تلك الحالة لم تصدق انه مات . اهكذا يكون الموت؟ بكل تلك السهولة واللامسؤولية، ودون مقدمات ؟؟ ينام الانسان في المساء ولا يستفيق كعادته . ولا تفيقه زوجته باكرا لانه تعب نهار امس . وتشرق الشمس وابو خطار لاول مرة لا يسبق الشمس الى كرم الزيتون . وآتي انا ، اقترب منه، « ها..ها.. لا بد انك كبرت ، راحت عليك يا ابو خطار » واقترب اكثر . على الجبين حبيبات عرق . « ابو خطار .. انا والصفير سبقناك ، هيا .. مالك يا شيخ ؟ » ويدي تمسح حبيبات العرق . باردة كالثلج هي . تفرك الوجه المتجمد . تنحدر ناحية الكتف ، تهزه برفق . لا شيء ، لا شيء مطلقا يا ام خطار . هل ولولت يومها ؟ لا .. انعقد لساني ، وقفت مشدوهة، « مات .. ما معنى مات ؟؟؟ » سألت جارنا الواقف امامي ينوح ويعوي « ماذا ؟ انتهى ؟ لا شيء بعد الان ؟ لا يقوم ؟ لا يمشي ؟ لا يذهب ؟ لا يعود ؟ لا يحمل خطار على كتفيه ؟ لا يغني لي على السطيحة في الليالي المقمرة ؟ » احقا كانت ذاهلة حينذاك ؟ « وطفة » ناقلة الاخبار من حي الى حي ومن بيت الى بيت كانت تقول متظاهرة بالشفقة « يا حرام ام خطار .. لم تعد بكامل عقلها .. لا تعتبوا عليها » .

يا الله اتراها الان بكامل عقلها ؟ وتنبهت ، انها ما تزال واقفة بلصق صورة خطار التي كبرها ابو سمير لتستعمل في المأتم .. وابتعدت قليلا عن الصورة حتى تغترف عيناها كل وجهه وكتفيه وصدره، حتى تغترفه كله .

« خطار .. خطار .. » وتحس بعاطفة قوية تغريها ان تندفع نحو الصورة ، ان تحتضن الكتفين ، وتغرق الجفنين بقبلاتها .

« يا حبيبي يا خطار ، هل رجعت ؟.. لكم انتظرتك هنا في العلية .. وعلى الطاقة .. كنت اجلس الساعات في انتظار ساعي البريد ».

تدق الساعة العاشرة والنصف ، تحس ام خطار برعشة في قلبها. لا بد ان ساعي البريد اصبح تحت شرفة ام سمير ، لكم تحسدها الان، تحسدها من اعماقها « سامحيني يا ام سمير ، ولكن الساعات التي كنت امضيها حد الطاقة ، احيانا من الحادية عشرة حتى الثانية بعد الظهر، كان يمر ويلوح لي بمكتوب في يده فأترك الطاقة واهبط الى الطريق .. كنت ترينني ؟ من شباكك كنت تراقبيني يا ام سمير ؟ وتحسديني ايضا؟ الله يسامحك » وتتنبه ام خطار على صياح الدجاجات كلهن لخطار، سيذبحن يوم عودته . ولكن لا .. نصف الدجاجات ليوم عودته والنصف الاخر يذبح يوم عرسه ..

ـ تيعا .. تيعا .. هذه السمينة ليوم العرس . خذي يا نحيلة لتسمني .

وترش ام خطار حفنات الشعير للدجاجات ، ثم تتجه بابصارها محدقة بالدرب حيث شلال من شمس الظهيرة يغسل حجارة الطريق ويستقر في حضن المنعطف . لا بد ان ساعي البريد يقترب من الكوع، يتجه صوب بيتها . عيناه كانتا تتجهان دائما صوب طاقتها لتقول :

ـ ام خطار .. صبحك بالخير ..

ـ يسعد صباحك ، وصباح مكتوب من ابني.

ـ ابنك كسلان يا ام خطار !

ـ يا ابني انت من عمره . بس سماع مني هالكلمة . لا تسافر وتترك امك تنتظر كل عمرها في العلية .

وتتأمل ام خطار . كانت احيانا تثور على حياة الانتظار التي تعيشها هي وكل نساء قريتها . الرجال يذهبون في الصباح ، وفي الحقول ينسون متاعب الحياة . وتبقى هي وكل نساء الضيعة في البيت لتطبخ وتنفخ وتحسب للغد الف حساب . ولتبقي بعض القوة في جسدها تنتظر الزوج على الباب في المساء . تنتظر وتنتظر وربما يأتي للحظات تكون هي في خدمته ثم يذهب من جديد وتعود هي للانتظار وربما يدوم انتظارها نصف الليل او كله « انتظري يا ام خطار مالك في هذه الدنيا سوى هذا الرجل ، فلا بد من انتظاره » وذات ليلة يغفو هذا الرجل

ولا يستفيق ابدا « مالك سوى هذا الرجل يا ام خطار فابكي وابكي، وحتى اهذي في الليل وفي النهار . وبدون وعي انتظريه على الباب في المساء كعادتك ، ابتسمي له ، وفي الليل لا بد أن يعود » .

« ابو خطار .. احضرت لك القهوة .. ثم ، الا ترى ان خطـــار ينمو بسرعة .. انه يناديني الان .. يقول ماما .. ماذا ؟ اسمك ؟ طبعا سأعلمه كيف يقول بابا» .

« خطار .. خطار .. هذا المستلقي هناك ، هو بابا يا حبيبي.. قل بابا .. الا تراه ؟ .. مضى ؟ لم يكن هنا ؟؟ » .

وتدور « وطفة » في القرية بحيبها « ألفوقاني والتحتاني » لتقول للجميع :

ـ مسكينة ام خطار اصبحت بنصف عقل . لا تلام .. خســـارة الزوج قليلة ؟

ـ انت يا وطفة لا تحسبين شيئا انت لم يكن لك زوج. لذلك امتهنت نقل الاخبار .. احكي ما تشائين ولكل الناس ..

ـ ولكن اسمعي يا ام خطار ، لا تنسي هذا الصغير سيكبر ، سيكون احلى من الزوج واغلى .

وتسكت ام خطار ، الام ، لينمو الصغير وليكبر ، ثم ليودع وليسافر، وعلى الطاقة تبدأ هي وكل نساء القرية عمرا اخر من الانتظار . انتظار رسائل الابن او عودته . وذات يوم يأتيها من يقول انه لن يعود .. اذ لا داعي للانتظار بعد الان .

تشتاق الطاقة ، لم تعد ثائرة على الانتظار . احلى ما عند المـرأة ان تنتظر الحبيب ، احلى ما عند الام ان تنتظر اطلالة الابن او رسالة منه. رسالة يلوح بها ساعي البريد . الله لكم يحرقها الا تكون كباقي الامهات المنتظرات في القرية لرسالة تقول ، « سأكون بينكم في اليوم الفلاني.. في الساعة الفلانية .. » او تقول « في الصيف سأعود الى البـلاد .. هل تزوجت سلمى ؟ .. اما زالت حلوة كما كانت ؟؟ » لماذا حرمتني يا رب من كل هذا ، وحتى من لذة انتظار ساعي البريد ؟ وتسمع خطـوات بعيدة . لا بد انها خطوات سليم . ماذا لو مر من هنا لو لوح بمظـروف ابيض . لا بد ان تعود الى الطاقة لتراه جيدا . ولكن ، اسمعي يا ام خطار ، ماذا تقول عنك «وطفة» لسانها اطول من يوم جوع ؟ « لتقل مـا تشاء ، ما ابعدها عن فهم معنى الابن ورسالة منه » .

ـ صباح الخير ام خطار .

قالها سليم واخفض عينيه ، ملقيا بنظراته على الارض. الله..ماذا تراها تنتظر ؟ عيناها تثيران شفقتي.

ـ سليم .. سأنتظرك هنا كل يوم ..

ـ ماذا يا ام خطار ؟؟ ولكن انسيت ؟؟

ـ من يدري ؟ من يدري ؟؟ اتظن انني صدقت ؟

ويتابع سليم سيره .. لكم يتمنى الا يمر من تحت سطيحة ام خطار، الا يرى وجهها بانتظاره كل صباح عند الحادية عشرة . اتراها نسيت ؟ ولكنها تقول انها لم تصدق ؟ والمأتم الذي اقيم منذ ايام ، الم يكن مأتم ابنها ؟ مسكينة ام خطار ، ان «وطفة» على حق !

الساعة المعلقة على الحائط تعلن الحادية عشرة . تلك الصـــداقة الحميمة بين الساعة بدقاتها الاحدى عشرة وبين ام خطار والطاقة المطلة على الدرب عادت اقوى مما كانت كل ما تخشاه ام خطار ان تراهـــا « وطفه » في احدى دورياتها الاخبارية منتظرة ساعي البريد ، عند ذلك ستترك العنان لمخيلتها تنسج ما تشاء .

ـ صباح الخير .. سليم مالك لا ترد تحيتنا ؟؟

ـ والله ما تنبهت لوجودك .. ولكن ، يا ام خطار ما زلت تنتظرين؟

ـ لماذا لا انتظر يا سليم ؟ وانت ايضا ؟

ـ لا ، اعني فقط ان خطار كسول ، وحين يكتب سآتي بالمكتـــوب بنفسي ، لا داعي للانتظار .

ـ لا بأس يا ابني ، سانتظرك دائما .

للمرة الثلاثين يلتقي عينيها على الطاقة المطلة على الدرب . ليـس فيهما سوى انتظار ، انتظار عنيد دائم . وفكر سليم ، ما اقسى سنواتها الاخيرة عليها ! انها عجوز ، يكاد يرى تقويسة ظهرها ، وارتعاشة انامله. ما زال يذكرها حين كانت تقبل رسائل ابنها . ولكن منذ مأتمه اصبحت اكثر ضعفا ، انها تستعمل العصا في تجوالها ، مسكينة انها تمضي ببطء شقي ، ماذا لو زرتها الان ؟؟

ـ تفضل ، يا ابني ، تفضل .

ـ صباح الخير .

ـ هات ، يا ابني هات ..

ـ ماذا ؟؟

ـ لا تخبيء علي .. انت تعرف عذابي ..

ـ .... ها ...

ـ الرسالة .. الرسالة التي جئت لتعطيني اياها .. صدقني الليلة حلمت بها . اما قلت لك انني لا اصدق ما قاله ابن اختي ، لا بد انه كان يحسده !!

وعبثا يحاول سليم ان يقنع ام خطار انه آت لزيارتها فقط ، وانه لا يحمل لها رسالة ، وكيف يكون لها رسائل ، وممن ؟

ـ في حقيبتك .. فتش في حقيبتك .. انا حلمت انك اعطيتنـي مظروفا من حقيبتك .

ودون وعي يأخذ سليم حقيبته يقلب الرسائل ، يتظاهر بقـراءة العناوين الموضوعة عليها ، يا لها من مصيبة ، من يقنع هذه العجوز ان لا رسالة لها وان الاموات لا يكتبون الرسائل ؟

ـ فتش .. يا ابني فتش .. هات دعني اساعدك ، ما زلت اذكر لونه الابيض المتسخ قليلا .

وتقترب لتفتش معه .

ـ لا يا ام خطار .. اسمعي دقيقة .. اظن انني نسيته في البيت. او في مركز البريد .

ـ ماذا ؟ نسيته ؟

ـ الان تذكرت .. نسيته .. سآتي به بعد ..

ويحسب سليم الوقت الذي يحتاجه ليصل الى مركز البريد ، ثم الوقت الذي يحتاجه ليكتب رسالة باسم خطار ، ابن ام خطار .

ـ سأعود بعد ساعة ونصف ، ساعة ونصف .. اعذريني لاني نسيته.

ـ سأنتظر يا بني .. لا بأس .

وقبل ان يمضي سليم عاد ليقول :

ـ ام خطار ، سآتي بالرسالة بشرط واحد .

ـ ها ...

ـ ان لا تخبري عنها احد ، مفهوم ؟

ـ ولماذا ؟؟

ـ انسيت ان الحساد كثار .. وسيحسدونك اكثر .

كل اسرار القرية وحكاياتها تعرفها « وطفة » بحكم وظيفتها، منهـا ما سمعته ونقلته بعد ان سمن على يديها . ومنها ما لونته في اوقـات فراغها الكثيرة . الا حكاية واحدة ، ما استطاعت فهمها ولا تفسيرهـا. حين كانت ام خطار تنازع كانت تؤكد للحضور ان ابنها خطار وعدها في اخر رسالة انه سيأتي في الصيف وانه سيتزوج سعاد ابنة المختار . واوصت الجميع ان يذبحوا الدجاجات ليلة وصوله والنصف الاخـــر ليلة عرسه . ولكن الجميع كانوا يتبادلون النظرات دون فهم . الا سليم: كان يبدو وكأنه قد فهم كل شيء .

عايده سلمان

طبعت على مطابع :

دار الغـد

تلفون : ٢٢٢٩٢١